الخطبة التاسعة والتسعون

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: 19/ 95]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وبعد:

كثير من الناس يتبعون آباءهم، ويتبعون طريقة بلدهم أو قريتهم، وبعضهم يلتزم بشيخ لا يحيدون عن تعاليمه وفهمه وطريقته وتفسيره للدين، وبعضهم يقولون: أنا هكذا نشأت وهكذا تربيت. أقول لكل هؤلاء الناس بقلب سليم، ولسان محب، ونية صادقة، وهدف رباني، لا أريد الطعن بأحد، ولا أريد أن أنتقص من مكانة أحد ولا من قدسيته، أقول لهؤلاء: الرجاء افهموا الحقيقة وكونوا على وعي من القضية، التزموا بقوله تعالى، وافهموه؛ لأنه ليس قول بعد قول الله تعالى، والحكم إليه وإليه ترجعون، وهذا لا خلاف فيه عند أحد. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: 19/ 93-95]، كل منكم يا خلق الله في أي زمان وأي مكان، سوف يأتي للحساب بين يدي الرحمن وحده، ليس هناك أبوه ولا أمه ولا ماله ولا منصبه ولا صحبه ولا عشيرته ولا أعوانه... سوف يأتي فرداً، هذه حقيقة، أبوه الذي كنت يتبعه، شيخه الذي كان يطيعه ويقبّل يديه ورجليه يطلب دعاءه، أخوه، أولاده ... أين هم؟

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المؤمنون: 23/ 101-104]. هذه هي الحقيقة المجردة، انجُ بنفسك يا عبد الله، هذا مصيرك، وهذه هي حياتك الأبدية،

فهل تبيعها لترضي أباك أو أخاك أو شيخك أو طائفتك؟ القول قولك، والقرار قرارك.

قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: 70/ 11-14]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: 80/ 33-41].

ثم يا أخي في الله، أود أن أعرض عليك القرار الرباني العظيم الحكيم الذي يجب أن تكون على علم يقيني به، لأنه قرار ربك ولأنه حُكْمُ ربك سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [عبس: 80/ 3]. قرار محسوم من خالق الكون: لن تنفعكم أرحامكم، أيّ قرابة، وأيّ صلة مع أحد، مهما عَظُمت، ومهما ارتفعت أو نزلت -أي: من آباء وأجداد أو أولاد وأولاد أولاد- وأكدّ على ذلك بقوله: (ولا أولادكم) هذه حقيقة، لقد نفى الله سبحانه أية منفعة من أقاربك وعشيرتك... ثم أكّد سبحانه بعد انتفاء المنفعة، أن الله سبحانه سيفصل بينكم، حتى أنك لن تكون قريباً منهم أو بمكانهم، يوم القيامة يفصل بينكم، وهذا تأكيد على قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 19/ 95].

بعد تجلي هذه الحقيقة -وهذا الفهم- أصبح موقفك من الله تعالى مردّه إلى أمرين: وهو أمر البيعة، ما هي البيعة؟ البيعة هي قولك: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. البيعة هي إيمانك وشهادتك بوحدانية الله سبحانه وتعالى. وإيمانك بأن محمداً عليه الصلاة والسلام عبده ورسوله، تطيعه وتتبعه وتطبق تعاليمه؛ لأنه هو رسول الله. ورسول الله ﷺ بلّغك الوحي القرآني، وبلغك الوحي النبوي، فأنت بايعت بالشهادة لتلتزم بهذين الوحيين، فإذا التزمت بهذين الوحيين سلمت وفزت ونجحت.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [التغابن: 64/ 8-9].

انظر معي يا أخي إلى وضوح الآيات، لا تريد مفسراً، نور الله سبحانه الذي أنزله هو القرآن والسنة، والله سبحانه خبير بنيّاتنا وخبير بمقاصدنا، وخبير بإخلاصنا وخبير بأعمالنا كبيرها وصغيرها، وخبير بما أسررنا وما أعلنا؛ لذلك قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾. يوم القيامة هو يوم الجمع ويوم التغابن، وذكر الله سبحانه أسماء كثيرة ليوم القيامة، كل اسم بحسب ما يناسبه من السياق. فما معنى التغابن؟ العلماء قالوا تفاسير كثيرة، وأهمها: أن التغابن من أصل الكلمة: (غبن) غَبَنَ البائع الشاري؛ أي: أنه أنقصه من حقه، أو أن الغُبْن هو: مخالفة العقد أو الاتفاق، فالبائع قال: الكيلو من هذا الصنف بعشرة، فالشاري دفع العشرة والبائع لم يعطه كيلو من البضاعة وإنما أنقصه فهذا غبن، أو أراه بضاعة وأعطاه بضاعة أخرى فهذا غبن، والغبن هو: الغش بخفاء، أو الغش بمخادعة، أو أن الغبن هو: إيهام البائع للشاري بشيء في البضاعة غير موجودة ليأخذ منه أكثر مما يجب. بعد كل هذا الكلام لماذا سماه الله بيوم التغابن؟

لأنك عاهدت الله سبحانه وتعالى وبايعته بقولك: (أشهد) هذه بيعتك لله تعالى، والله تعالى وعدك على هذه البيعة جنة عرضها السموات والأرض، فهل وَفّيتَ ببيعتك هذه لله تعالى؟ فهذا يوم التغابن، يوم الحساب. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: 48/ 10] فهل خالفت في شهادة: «أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»؟ هل عقيدتك سليمة من الشرك؟ هل نيتك خالصة لله تعالى؟ هل رضيت بالله ربـًا وبالإسلام دينـًا وبمحمد نبيـًا ورسولاً؟ هل اتبعت رسولك بسنته وأعماله وأفعاله مخلصـًا له، راضيـًا، محبـًا، طائعـًا، مستغفراً تائبـًا، راضيـًا بقدر الله سبحانه وتعالى، خائفـًا من عقابه، راجيـًا ثوابه ومغفرته ورحمته؟ إذا خالفت فذلك يوم التغابن، تدفع فيه ثمن مخالفتك وإن صدقت في عهدك مع الله، وفي بيعتك مع الله، نِلْتَ الجنة. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 9/ 111]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: 9/ 111].

أعود فأقول: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 19/ 95]، تموت وتعاني من سكرات الموت وحدك، أنت وحدك تشعر بالألم ولو كانت الدنيا كلها حولك، أنت وحدك تشعر بنزع الروح، أنت وحدك ترى الملائكة، وأرجوه تعالى أن تكون ملائكة الرحمة والتي تقول في حالة النزع قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: 41/ 30-32]، أنت وحدك تشعر بهذا. والفريق الآخر يشعر وحده أيضاً بملائكة العذاب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: 8/ 50].

أنت وحدك تنزل في قبرك، فيضيق عليك القبر، ويكون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار والعياذ بالله، وتكون وحدك ولو كنت ملكاً مطاعاً تكون وحدك، ولو كنت محبوب الجماهير، والله لا يبقى معك أحد تكون وحدك، وتُسأل وتُحاسب وحدك، وتُحْشَرُ وحدك، وتقف بين يدي الرحمن وحدك. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويقرره بذنوبه، فإذا أقره بذنوبه، ورأى أنه هالك، قال الله: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» مسلم وابن ماجه، (ثم يعطى صحيفة حسناته وكتابه بيمينه). كل هذا وحدك، وتسير على الصراط وحدك.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: ذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا عائشة؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحداً، حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتب، يقال: (هاؤم اقرؤوا كتابيه) حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أو من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب كثيرة وحسك كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه، حتى يعلم أينجو أم لا؟» ك - حم والبيهقي صحيح على شرط الشيخين.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 41/ 29]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ [الأحزاب: 33/ 67-68].

خَفِ الله يا عبد الله، والتَزِم بكتاب الله وسنة رسوله وفهم الصحابة الكرام الذين أثنى عليهم ومدحهم في كتابه فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: 4/ 115]، وانظر إلى قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهل المؤمنون إلا الصحابة الكرام الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم والسنة وتطبيقاتها، وقد رضي الله تعالى عنهم بقوله: ﴿۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح: 48/ 18]، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح: 48/ 29]، وانظر إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من هم بربك؟ أليسوا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة الكرام؟ أليس هذا ثناء وتكريم من الله تعالى لهم في قرآنه الذي يتلى إلى يوم القيامة؟ وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: 66/ 8]، وانظر إلى قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من هم الذين آمنوا معه وقاتلوا معه وأنفقوا أموالهم وأرواحهم معه وكانوا في كل غزوة؟ أليسوا هم الصحابة الكرام وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وأبو عبيدة بن الجراح وكل الصحابة رضوان الله عليهم؟ فهؤلاء الصحابة هم الذين أثنى الله عليهم لأنهم حملوا كتاب الله، وسنة رسول الله، وفهم الشريعة وتطبيقاتها، فهل نحيد عنهم وعن فهمهم وعن منهجهم وعن تفسيرهم لغيرهم ممن جاؤوا بعدهم فخالفوهم؟ أين المنطق؟ أين عقولنا؟ نبتعد عنهم وعن منهجهم عصبية واتباعاً لمذهب أو شيخ أو طائفة أو أب أو أم أو عشيرة،

وكل هؤلاء لا يفيدوني بشيء، ولا يدافعون عني، ولا يُحاسبون معي، ولا يقفون معي أي موقف، لأن الله تعالى حَكَمَ وقَرَرَ وقال: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: 19/ 95] وأكون في قبري وحدي، ويأتيني الملكين فيسألاني وحدي: من ربك؟ ما دينك؟ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فأقول بإذن الله: ربي الله، ديني الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا أذكر شيخي ولا طائفتي ولا أبي ولا أخي... قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: 57/ 14]. اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً، اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين اللهم آمين